مقالات

فلسفيـــة

الحداثة والتحولات القيمية

الحب، الموت والأخلاق نموذجًا

أحمد صديق محمد

9 ابريل 2023

جميع الحقوق محفوظة 2023

بسم الله الرحمن الرحيم

الحداثة والتحولات القيمية

الحب، الموت والأخلاق نموذجًا

أحمد صديق محمد

الفهرس

المقدمة: 5

الملخص: 6

الحب في عصر الحداثة: 7

تشيئة العلاقات: 9

الموت في عصر الحداثة السائلة: 13

الأخلاق في عصر السيولة: 17

المقدمة:

تناولنا في مقال سابق مفهومَي الحرية والخوف في فكر العالم الإجتماعي البولندي زيجمونت باومان؛ إثر حديثه عن التحولات التي صاحبت الحداثة، خصوصًا بالتي نسميها بالمفاهيم القيمية، ثم عرضه الشيق والمثير لأغلب الأفكار التي تطرق إليها التغيرالكلي بعد الإنتقال من الحداثة الصلبة إلى الحداثة السائلة؛ فأسهبنا الحديث حول الخوف السائل ووضّحنا كيف قامت الدول والشركات التجارية العابرة للقارات والجماعات الإرهابية وحتى المراكز التدريبية من إستثمار الخوف الطبيعي للإنسان. ثم عن الاستهلاك وعن الإقتصاد المبني في الانتقال من إنتاج المنتج المثالي إلى ترويض المستهلك المثالي، المتلهف إلى إنتظار الجديد للتخلص من القديم بكل شغف وسعادة؛ لأنه ببساطة لم يعد صالحًا للاستخدام.

وفي هذا المقال سننتقل إلى زاوية أخرى من فكر باومان؛ إذ يرى أن التغير الذي حدث للإنسان كان شاملًا لكل مناحي الحياة؛ لذلك فحتى العلاقات البشرية لم تسلم من الرؤية المادية التي إستبعدت لكل ماهو غيبي؛ وذلك بعد أن اقتصرت الحس والتجربة كمصدرين وحيدين للمعرفة.

الملخص:

الحب والموت ليس لهما تاريخ محدد أو زمن معين، وليس لهما مصدر مادي محسوس، بل لازما كيان الإنسان ووجوده منذ النشأة. وكان لهما كما لغيرهما من القيم أعمدة وأسس يقومان عليه، وسقف يستظلانه، ويشتركان بأنه ليس لهما زمن محدد أو موعد معين بل يأتيان بغتة وبدون سابق إنذار.

وفي ظل التغيرات الأخيرة التي صاحبت الحداثة أصبح تعليم الحب أحد الوعود التي وعدت بها الحداثة في تحقيقها ووصلوا إلى قناعة مفادها بأنه يمكن إثبات ذالك من خلال قواعد رياضية صارمة ويمكن معرفة ذالك من خلال زيادة عدد تجاربه بوصفه أحداثا منفصلة، وحادة، وقصيرة، ومنفصلة، وصادمة، يخوضها المرؤ بوعي سابق بهشاشتها وزوالها، ولكن يمكن أن نقول بأن الوعد بتعلم فن الحب وعد زائف يتمنى الناس كل المنى أن يكون وعدًا حقيقيًّا.

وكأن الحب في توصيف باومان في واقعنا كأحد أنماط التفاعل الإنساني بدأ يتحول اليوم إلى نمط افتراضي، يعززه طبيعة تغلغل العلاقات المبنية على التقدم التكنولوجي لنمط جديد لعلاقات أكثر هشاشة، هنا نلمس واقعنا المر حيث نرى صورة الزوجة الموجوعة وهي تطلب دواء يسيرًا من زوجها فيحيلها للسائق أو الابن لأنه يتابع المبارات، أو في مناقشة إلكترونة مع أحد الأصدقاء، ولربما يطلب الزوج طعامًا معينًا لعارض صحي من زوجته فتحيله للخادمة أو تعده بعد مشاهدة آخر لقطات المشهد، أو قراءة الرسائل وردود الشات، إنه الحب الجاف الذي تفوزه

التكنولوجيا والترفيه الآني على لحظات المشاعر والود، فتصير المرأة كاللبؤة النائمة ويصير الرجل كالورقة النقدية.

وفي الموت فإن الحداثة نقلتنا الخوف من الغيب إلى الخوف من الفناء ولأنها وعدت بالسعادة الآن وهنا، فقد عدت الفناء مشكلة؛ فبدأت في مواجهة الفناء بالعلم الذي يلهث وراء ديمومة الوجود الفردي عبر الزمن وإطالة عمره والمحافظة على شبابه والاحتفاظ بذكراه بعد الموت.

ومن انعكاسات تلك الفكرة في عصر السيولة أن أصبحت الروابط الإنسانية هشة ولا تبقى متينة إلا في فترة مؤقتة، ولا يتوقع دوامها إلا في فترة قصيرة إذا دامت أصلًا، وإن دامت فإنها تدوم (حتى إشعار آخر).

وعمومًا فإن التفكيك الذي قامت به الحداثة أدى إلى حصر الإنسان في وجوده المادي الجسدي واستبعدت الشق الإنساني والعاطفي، بل أبعدت الجانب المعنوي الوجداني ليخضع بعد ذلك إلى التأقيت وإلى العمليات الحسابية المتصفة بالمرور السريع بعد الاستهلاك مباشرة؛ لأن غاية ما تبشر به الرأسمالية عبر آلتها التسويقية هي قمة اللذة ومنتهى النشوة وغاية المتعة مع علاقات لحظية عابرة سريعة.

الحب في عصر الحداثة:

لقد كانت العلاقات البشرية من قبل وحتى في زمن الحداثة الصلبة مبنية على عبارة «تعاهدنا ألا يفرقنا إلا الموت» ولكن مالبث هذا المفهوم كغيره من المفاهيم الكثيرة التي تعرضت للتغيير والتبديل؛ فإن كانت العلاقات من قبل مبنية على الديمومة والبقاء ودوام الحب بين المرأة والرجل فإنها أصبحت الآن قائمة على عبارة «فلنجرب ولنرى ما سيحدث» والرغبة والأمنية، وانتقل الجنس من الجنس المرتبط بالتكاثر، إلى الجنس المنفصل عن التكاثر، الهادف لإشباع الرغبة فقط، بل فقدت كلمة الحب معناها من البذل والعطاء والتآزر وسائر المعاني الراقية، وتحولت إلى كلمة فضفاضة لاتحمل في طياتها أي قيم روحية ولا أي مبادئ سامية، مما جعلهم يطلقون العلاقات الجنسية

غير الشرعية ولو ساعة واحدة بعلاقات حب! بل من الإمكان اختيار طفل من متبرعين بحيوانات منوية مثلما اعتاد المستهلكون من شراء البضائع عن طريق البريد أو عن طريق الإعلان في المجلات[1].

ونلاحظ كيف باتت المشاعر البشرية التي كانت تستمد بقاءها من المثال ومن الفكرة المتعالية وكانت متسمة بالسمو والرفعة خاضعة لعمليات حسابية ولقوانين رقمية مادية، وهذه هي النتيجة الحتمية إزاء استبعاد السرديات الكبرى لتفسير العالم، ثم اختزال الإنسان في أمرين (هواه.....وماديته)، أي إرادته التي لايحكمها معيار خارجي وطبيعته التي تم إختزاله في الجانب المادي، مما أظهر خبراء ينصحون الإنسان بألايتعلم الالتزام، بل يضع مسافة بينه وبين زوجته، ليكون الباب مفتوحًا أمام جميع الاحتمالات ولينسحب بهدوء إذا شعر بملل، ويبقى دائمًا يقظًا ومستعدًّا للتخلي في أي لحظة، وليكون في باله دائمًا أن الغرض من العلاقات هو المصلحة، والمصلحة تتطلب عقلًا ثاقبًا لا قلبًا طيبًا. فصاروا يعلمون الإنسان كيف يتخلى ويدربون الأجيال بأن أساس العلاقات هو اللذة الحسية، وإذا انخفضت في يوم من الأيام فيجب أن يكون البديل هو الرحيل.

وفي ضوء ذالك يرى باومان بأن هذه العملية قد استغرقت زمنًا طويلًا، ومهَّد لها عدة جوانب مختلفة؛ حيث يلاحظ أنه في الأول تم تغييب الأسرة من الدراسات الإجتماعية والسياسية فانصبّ اهتمامها وصارت تركز على السلوك الفردي الظاهر، بل أفرغت الأسرة من همأهم وظائفها فنرى المدراس قد تولت التنشئة الإجتماعية والخبراء النفسيون قد تولّو التوجيه النفسي، وبعض الشركات أصبحت تتولى الأعمال اليومية التي كانت منوطة للأسرة، ولم يبقَ لها إلا توفير قدر هامشي من العاطفة، فيرصد باومان واقعنا الإجتماعي الذي سادت فيه تفكك العلاقات.

ومن خلال تلك المعطيات تحولت المشكلة إلى حالة طبيعية، ويمكن أن نقول بأنه تم تبيئة فن التخلي، وكما تم في الجانب المعرفي تفكيك العلوم عن بعضها البعض

(1) زيجمونت باومان، الحب السائل: عن هشاشة الروابط الإنسانية، ت: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

وشاعت النظرة التجزيئية بدل التكاملية صارت الحياة البشرية على المنوال نفسه؛ لذلك يقول أن المأساة التي نحياها تتلخص: الانتقال من الصلابة الى السيولة، كما يرصد الخلل العلمي والاجتماعي في فهم الحب وآثاره في الحياة اليوم، من التحول من الحياة الصلبة في الأسرة الآمنة المستقلة والحياة العلمية إلى الحياة السائلة المنفلتة، التي تفتح الأبواب أمام الخيارات لأغراض آنية سريعة، وتحول معاني الحب من الحرص والرعاية إلى الإشباع والالتهام، ومن جلسات السمر العائلية إلى الجلسات الشادة اللاعائلية ومن الاقتصاد الأخلاقي الذي يعتمد على حد الكفاف وكفالة الآخرين إلى إقتصاد العولمة القائم على العزلة والإنفراد[1].

تشيئة العلاقات:

إن الحب والصداقة وغيرها من العلاقات تبنى على تكامل مجموعة عناصر مختلفة، وإقامة علاقة بينها، واستثمار وقت فيها والإستعداد للتضحية من أجلها، توقعًا لكسب عوائد عادة مؤجلة، وبالتالي لكي تصل الحداثة إلى هذه اللحظة من تفكيك مقومات الوجود بعد فك الارتباط بين الإنسان وربه وبين خياراته وثواب الدنيا أو الآخرة، أنها هدمت بنيان الأسرة كإطار للعلاقة الوجدانية للفرد بدءًا من تفكيك عمليات التحديث للأسرة الممتدة بنمو المجتمع الصناعي وصعود المدن الحديثة استخدمت العلم (الإله الجديد الذي وعد بتقديم كل الإجابات) في فك الارتباط بين أربعة مكونات للأسرة: الحب (العاطفة) والجنس (المتعة) والإنجاب (الذرية) والرعاية (المودة والرحمة) ثم حولت كل منها إلى سلعة يمكن تسويقها أو لخدمة تقوم الدولة وليس المجتمع بتوفيرها.

(1) زيجمونت باومان، الحب السائل: عن هشاشة الروابط الإنسانية، ت: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

يقول باومان: إحدى التبعات المهمة المشؤومة لتلك الأيديولوجية الجديدة تتمثل في استبدال مقولة «الهوية المشتركة» لتحل محلها مقولة «المصالح المشتركة». فلم يعد بالضرورة ما يجمع فئة من الناس رابطٌ ثقافي أو ديني أو اجتماعي بل ما يجمعهم علاقات قائمة على المصالح المتبادلة.

يفرق باومان أيضًا ما بين الحب والرغبة: فيرى أن الرغبة في جوهرها إشتهاء للاستهلاك، اشتهاء للإشباع والالتهام والابتلاع والهضم، إنها إشتهاء للتدمير بينما الحب يعني الحرص على الرعاية والحفاظ على موضوع الرعاية، فالحب بتعلق ببقاء الذات عبر آخرية الذات، ومن ثم فإن الحب يعني التوق إلى توفير الحماية والإطعام والإيواء، وكذالك يعني أن يكون الآخر في خدمة الآخر وتحت طلبه، ورهن إشارته، فإذا كانت الرغبة تبتغي الاستهلاك، فإن الحب يبتغي التملك. وإذا كان تحقق الرغبة يعني تدمير موضوعها، فإن الحب ينمو ببقاء موضوعه ودوامه. وإذا كانت الرغبة تدمر نفسها بنفسها فإن الحب يديم نفسه بنفسه. كما أن مقاصدهما متعارضة فإن كان الحب شبكة تنسج من أجل الأبدية فإن الرغبة وسيلة للهرب من الأعباء الثقيلة التي يتطلبها نسج الشباك، فالحب بطبيعته يسعى إلى إدامة الرغبة، وأما الرغبة بطبيعتها فتهرب من قيود الحب[1].

أيضًا أسهم هذا الواقع في إنقضاء عهد المصاهرة التقليدية المبنية على المحبة والقرابة، وجعل شبكات القرابة تفتقر إلى جسور مستقرة يعتريها الضعف والوهن، وإن الوصية: أحبب جارك كما تحب نفسك يرى فرويد في كتابه الحضارة وأوجاعها أنها تمثل إحدى الوصايا الأساسية للحياة المتحضرة، ولكن الحقيقة أنها تمثل أكثر الوصايا تناقضًا مع العقل الذي تروجه الحضارة الغربية، بل يكفي أن يتساءل المرؤ لم ينبغي أن أفعل ذالك؟ مالعائد علي من ذالك؟ إنها أسئلة لايستطيع أن يجيب عنها العقل المادي المنفك عن القيم.

(1) زيجمونت باومان، الحب السائل: عن هشاشة الروابط الإنسانية، ت: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

وكما وضحنا في الدراسة السابقة[1] فعندما يدرك المستهلك أن السلع التي اشتراها معيبة أو غير مرضية يمكنه استبدالها، والحصول على سلع أخرى أكثر إرضاء، حتى وإن لم تتوافر خدمة ما بعد البيع ولا ضمانات استرداد النقود المدفوعة وكذالك صارت العلاقات، لأن المهارات المكتسبة هي مهارات «الإنهاء السريع للعلاقات والبدأ من جديد».

«وفي ظل الحداثة فإن الربح الذي يتوقعه المرؤ عند الاستثمار في الحب هو الأمن في المقام الأول والأخير، الأمن بمعانيه المتعددة: أمن القرب من يد العون في الشدائد، والتعزية في الأحزان، والمؤانسة في المحبة، والغوث في المحنة، والمواساة في الفشل، والتهنئة في النجاح، والتلبية الفورية للحاجة عند طلبها، بل إنه استثمار مثل غيره من الاستثمارات، وهل يخطر ببال المرء أبدًا أن يحلف قسم الولاء للأسهم التي اشتراها لتوّه من السمسار، وإن أول مايفعله المستثمر في الصباح هو قراءة الصفحات الخاصة بالأسواق المالية في الصحف حتى يعلموا ما إذا كان الأوان قد حان لبيع الأسهم أو الاستمرار في حملها».

ولأن طبيعة الحب تنفي التجريب ومانراه من تفكك إنما هو نتيجة متوقعة من انتقام الحب لمن أراد أن يتحدى طبيعته، لأن الحب يقع من شخصان يمثل كل واحد منهما المجهول العظيم في معادلة الآخر، وإن ثقافة الإستهلاك الفورية السريعة والإشباع اللحظي والنتائج التي لا تحتاج إلى جهد طويل ليست من سمات الحب الحقيقي، فكما يعبر إريك فروم فإنه لايمكن تحقيق الإشباع في الحب الفردي، من دون تواضع حقيقي وشجاعة حقيقية، وإيمان حقيقي وإنضباط حقيقي، ثم يقول في حزن وأسى: إنه في ثقافة تندر فيها تلك الخصال، لا بد من أن تندر القدرة على الحب.

في كتابه الحداثة والهولوكوست أخبرنا باومان مبكرًا بأن نبذ الغيب والألوهية لم يكن إلا تمهيدًا لعملية تأليه الإنسان ثم جعل جسده مصدرًا للهوية ومناطًا للذات،

(1) أحمد صديق، الخوف والحرية في فكر العالم الاجتماعي زيجمونت باومان، نماء للبحوث والدراسات.

لذالك لم يعد للحديث عن الجانب المعنوي للإنسان قيمة (فالعقوبات في الإسلام أقساها هو المعنوي والأخروي لا الجسدي المادي كما يتصوره البعض) لأنه تم تفريغ المضمون التراحمي الثقافي ذات البعد الميتافزيقي من حياة الإنسان.

ولكن ينبغي للإنسان أيضًا ألا ينسى أنه في عصر استبدال المنتج قبل نهاية فترة الضمان، وليس عصر فن إصلاح الأشياء، إنه عصر الفرصة القادمة التي تجعل ما في يدك قابلًا للتخلي عنه فلا ترتبط به بشدة، فقد لايكون شريكك هو الآخر راغبًا أو قابِلًا لعلاقة طويلة تحرمه بدوره من فرص أفضل، لأن العلاقات الطويلة يصيبها الملل والتعب، وينبغي أن تكون العلاقات دائمًا في الجيب العلوي بحيث يمكن إخراجها بسهولة لأنها كما تراها جارفي علاقات عذبة وعابرة، وربما نفترض أنها عذبة لأنها عابرة.

الموت في عصر الحداثة السائلة:

«كان اختفاء رفيق من الحياة صورة مجازية لفكرة (موت الأنت) في ما قبل السيولة، ولكن بسبب الهشاشة في العلاقات إتسمت الحياة الحالية بالشك الدائم والاحتراس الصارم للحد من الخيانة والغدر لمنع الخوف، هذا الخوف الذي يخشاه الجميع ولا طاقة لهم به ولأن العلاقة الإنسانية لم تعد موطنًا لليقين والسكينة والطمأنينة بل صارت مصدرًا خصبًا للقلق». بهذه العبارات يصف باومان كيف تحولت القيم وتبدلت في عصر السيولة.

يرى باومان بأن الحداثة فككت الموت فحولته من حتمية إلى مصادفة، وذالك عندما جردته من رهبته، وقدرته، وعدته ناتجا عن أسباب محددة، ومن ثم يمكننا التخلص من الموت بمعالجة الأسباب المؤذية إليه، ثم أتى التطبيع فتحولت خبرات الحياة إلى خبرات قصيرة الأجل قابلة للانتهاء والفناء. ومن هنا ظهر موت المشاعر، موت الأحلام، موت العلاقات، موت التعاطف، موت الأيدلوجيا، موت الله، موت الإنسان، موت الكاتب[1].

فتفكيك الموت يعني تجريده من هالة الهول التي يحملها دوما، إلا أن الشيء الخفي في أثناء التفكيك هو الحقيقية الصعبة المستعصية المتمثلة في الفناء المحدد بيولوجيا للبشر؛ بل إن فكرة الموت لأسباب طبيعية لم تعد مستخدمة عند الأطباء، فلا بد من تحديد سبب حقيقي مباشر للموت؛ ذلك لأن عجزهم عن تحديد سبب مباشر للموت سيُعد دليلًا على انعدام الخبرة والمهارة المهنية فلا بد من الإشارة إلى سبب محدد لكل حالة وفاة، ولأن أقارب المتوفى وأصدقاءه لن يتقبلوا فكرة الأسباب الطبيعية للموت.

ومن انعكاسات تلك الفكرة أن أصبح الإنسان مهووسًا بالأمن، لا يتحمل أي ثغرة

(1) زيجمونت باومان، الحياة السائلة، ت: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

ولو كانت بسيطة في التدابير الأمنية مما جعله أخصب مصدر للخوف وللقلق بل أصبح يتجدد ولاينضب وهو نتيجة للتوقعات المتزايدة، بل هو مجرد أثر جانبي بالإعتقاد بإمكانية تحقيق الأمن التام والحياة الخالية من الخوف عبر الاكتشاف العلمي المستمر والاكتشاف التكنولوجي المستمر، واتباع المهارات الصحيحة، وبدل الجهد السليم، ولكن القلق الدائم ما زال يعذب الإنسان ويوحي بأن الحداثة لم تف بوعدها، وأن وعدها لم يتحقق. بل أصبحنا ننهمك بالمخاطر الغامضة التي يخفيها العالم المبهم، ومستقبله الغامض، حتى بات الكل مشغولًا بالعلامات السبعة للسرطان والأعراض الخمسة للاكتئاب، أوطرد الروح الشريرة التي يمثلها كل من ضغط الدم المرتفع، وزيادة نسبة الكولسترول، والتوتروالسمنة. لأننا نبحث عن أهداف بديلة لنفرغ فيه فائض الخوف، ويمكن أن نقول بأنه تم استثمار الموت كما تم إستثمار الخوف الطبيعي عند الإنسان.

«في برنامج الحلقة الأضعف يسهم اللاعبون جميعًا غنائمهم في الصندوق المشترك، وفي النهاية لا يوجد سوى شخص واحد، يضع في جيبه الغنائم كلها، فالبقاء هو فرصة شخص واحد، والطرد هو مصير الآخرين جميعًا، فإن كانت الحكايات الأخلاقية في الماضي تدور حول الثواب الذي ينتظر الأبرار والعقاب الذي ينتظر الأشرار، فإن هذه البرامج تكرس مفهوم أن العقاب هو الأصل والقاعدة وأن الثواب هو الاستثناء فالفائزون وحدهم هم من يستثنون من الحكم العام بالطرد».

المغزى من إستشهاد ذالك البرنامج هو الحذر من لحظة الغفلة، لأنها قد تؤدي إلى هزيمة ماحقة، وإن كانت أخلاق الزمان تحقق الخلاص فإن الوضع الحالي انعكس تمامًا فإنها لا تعرف الرحمة ولا تحقق الخلاص، بل تغرس ألوانا من الخوف يصعب علاجها ولايمكن استئصالها، إنها تبقى للأبد ما أن تنغرس؛ ومن الممكن تعليقها أو قمعها فترة من الزمن ولكن لا يمكن طرد أرواحها الشريرة، ولم يجد أحد ترياقا لتلك المخاوف، ولن يجد، لأنها إنتشرت في الجسم والعقل، ولكن الموت يختلف جميعًا عن تلك الصفات، فإنه يعني متعذر الإصلاح، متعذر العلاج، متعذر التغيير، بائن قاطع، نقطة اللاعودة والأخيرة، والأدهى من ذلك فإنه يأتي بغتة وفجأة، فيلغي فكرة الاستعداد تماما، ويبطلها[1].

(1) زيجمونت باومان، الحياة السائلة، ت: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

يرى باومان بأن السوفسطائيين كانوا على خطأ عندما قالوا بأن الخوف من الموت مخالف للعقل، وإنه عندما يأتينا الموت هنا لا يكون لنا وجود هنا، وعندما نكون هنا لايكون للموت وجود هنا. ولكن فأينما نكن يدركنا الوعي بأن الموت لا بد أنه سيضع نهاية لوجودنا هنا، عاجلًا أم آجلًا، وإن أفضل فكرة للتعامل مع الموت هو الإعتقاد بأنه ليس نهاية الوجود ولكنه ممر من عالم إلى آخر، إنه مجرد رحيل عن الحياة، وليس نهاية الوجود، فالموتى لن يسقطوا من عالم الوجود الوحيد، ولن يذوبوا ويختفوا في عالم اللاوجود، بل سينقلون إلى عالم آخر ويستمرون في الوجود، قد يتحلل الجسد ويبلى ويفنى ولكن تبقى الروح لأن الوجود لاينحصر في الهيكل العظمي الذي يكسوه اللحم، وإن أبدية الروح تضفي الحياة الدنيوية معنى وغاية وقيمة نفيسة لانظير لها.

فالموت حتمي وتذكره يبقي الحياة على الطريق الصحيح، ويضفي للحياة غاية فعبارة تذكر أنك ستموت تعني: عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ماشئت فإنك مجزيٌّ به، فلا مفر من الحياة الآخرة، ولكن طبيعتها تتوقف على الطريقة التي تحيا بها حياتك قبل أن تموت، فقد تكون كابوسًا وقد تكون نعيمًا، وإن كان الاختيار بين الجنة والجحيم أمرًا مقضيًّا بحيث يتحدد مصير الروح للأبد بانتهاء فرص ممارسة الفضيلة واجتناب الرذيلة، لذلك فإن هذه الحياة الدنيوية القصيرة فإنها تمتلك السلطة الحقيقية على الأبدية، ويدفع واجب تذكر الموت الأحياء إلى ممارسة تلك السلطة.

وإن تحويل الموت إلى أمر إيجابي تمكن للإنسان الفاني من أن يتصالح مع الفناء، الذي كتب عليه، ويطمئنه بأن عمله وجهده لن يضيع، وترك له الاختيار بأن يقرر إذا ما كانت حياته ينبغي أن ترسي فرقًا وما عساه أن يكون هذا الفرق.

إن هذا التفسير للموت يفسر أيضًا كثيرًا من الطواهر الإنسانية كتضحية الأفراد بحياتهم من أجل الجماعة المتخيلة، لتي تمثلها الأمة، والأمة تحتاج إلى سلطة الدولة حتى تشعر بالأمن، والدولة تحتاج إلى الحماسة الوطنية حتى تشعر بالقوة، فكانت الدولة تحتاج إلى أمة والأمة الى الدولة، واحتاجت الأمة أفرادها باعتبارهم رعايا للدولة، وتملك سلطة تجنيدهم الإلزامي، في سبيل قضاياها القومية، فيجب عليهم التضحية في سبيل خلود الأمة.

ويوضح جورج موسى بأن الناس في الماضي كانوا ينظرون إلى (موت أخ أو زوج أو صديق في الحرب) تضحية شخصية تمامًا مثل موت الشهيد، وأما في عصر السيولة فيقال إن المكسب يفوق الخسارة، في الأهمية والقيمة، فموت البطل يمكن أن يكون خسارة ومأساة شخصية، ولكن يمكن تعويضه من خلال الخلود الماضي للأمة، ولهذا انتشرت في أروربا النصب التذكارية لمن ضحوا بحياتهم، تذكيرا للأحياء بأن الأمة التي تعترف بفضل أبناءها عوضت تضحية أولادها بتخليد دكرى الواجب، وبأن الأمة لم تكن لتحيا وتشيد النصب التكريمية للموتى لولا استعدادهم للتضحية بحياتهم.

والجدير بالذكر أن هذه النصب التذكارية حققت غرضها للاحتفاء بالجنود المجهولين للتذكير بأن الرتب العسكرية للأبطال والحياة بأسرها حتى الشهادة الكبرى لم تمثل أية أهمية للفعل للفعل البطولي الذي يحظى بالتقدير، كما تذكر بأن هذه النصب تذكير للأحياء بأن لحظة الموت وحدها في ساحة المعركة هي الغاية الكبرى وأن قيمة الموت قادرة على إعادة تعريف وإعلاء تمجيد معنى أردل حياة معروفة.

وفي المقابل في عصر السيولة ظهرت حيل أخرى في تهميش المخاوف المرتبطة بالموت، عبر نزع قيمة أي شيء يتجاوز الحياة الفردية أو تفاصيلها المحددة، بل ونزع قيمة التجارب التي تمثل المادة التي تصاغ منها فكرة الأبدية لإثارة الانشغال بمكان الإنسان فيها، من خلال طريقيتين وهما تفكيك الموت وتطبيع الموت.

ويصاحب في التفكيك تطبيع، فهو رفيقه الضروري الحتمي، والتطبيع يحول الحدث إلى مألوف شبه يومي، ومن ثم الأمل في تخفيف وطأة العيش مع الموت وجعله حدثا مألوفا، كما أن فقدان عزيز أو رفيق من رفقاء الحياة يربطنا رابط الحميمة والتعاطف يمكن وصفها بالتجربة الأولى للموت، (وهي الطريقة الوحيدة التي يمكن للأحياء معرفة تجربة الموت)[1] وأن انفصال وانهيار العلاقة لشخص عزيز يمكن اعتبارها الدرجة الثانية من الموت، وهذا يتكرر كثيرًا.

(1) المصدر نفسه.

الأخلاق في عصر السيولة:

يرى باومان بأن الفعل االإجتماعي قد تم تحييده من القانون الأخلاقي، وذالك بالتهوين من أهمية المعايير الأخلاقية، كما تم تجريد النفس البشرية الفردية من المسؤولية الأخلاقية على تبعات أفعالها. إذ سعت البيروقراطية إلى إلغاء العواطف البشرية في العمل، وإلى منع الروابط الروحية الممتدة خارج العمل، وإلى إبطال الولاءات لأهداف غير الأهداف الرسمية للعمل.

وأعيد تعريف أخلاق الموظف باعتبارها طاعة الأوامر والاستعداد لإتقان العمل، مهما كانت طبيعة المهمة المأمورة بأداءها، ومهما كان تأثيرها في الأطراف المتضررة من الفعل البيروقرطي.

فإن كانت البيروقراطية في العصر الحديث قد حيدت الآثار الأخلاقية للأفعال البشرية، فإن التكنولوجيا المتحررة في أزمتنا السائلة تفعل شيئًا مشابهًا عبر توفير المهدئات والمسكنات الأخلاقية، إنها توفر مخارج مختصرة ظاهرية للبواعث الأخلاقية، وحلولًا سريعة عابرة للمعضلات الأخلاقية بينما تريح الفاعلين من المسؤولية عن ذلك، وهي بذلك تحول المسؤولية إلى الأدوات التقنية وعلى المدى البعيد تجرد الفاعلين من المهارات الأخلاقية وتخدر ضميرهم الأخلاقي، وتغرس اللامبالاة تجاه التأثير الكامل للتحديات الأخلاقية، وهي بوجه عام تجرد الفاعلين من أسلحتهم الأخلاقية ومن الإقدام على خيارات صعبة، تتطلب قدرا من إنكار الذات، أو التضحية به.

إن حماية الإنسان من تقلبات الطبيعة ونزواتها كان جزءًا متمِّمًا لوعد الحداثة، وصراعها من أجل ترويض الكوارث الطبيعية يتبع ذالك نموذج بناء النظام والتقدم الاقتصادي، ولكنه قسم الإنسانية إلى فئتين، فئة تستحق العناية والرعاية وفئة عديمة القيمة، كائنات غير جديرة بالحياة وهذا ما يمكن تفسيره لما حدث أثناء إعصار كاترينا في الولايات المتحدة الأمركية، فإن كان الإعصار بحد ذاته لم يكن نتاجًا بشريًّا إن تبعاته

كانت بوضوح نتاجًا بشريًا، إذ إن الحكومة كانت مشغولة بتخفيض وتقليص الموادر المالية المخصصة لإصلاح دفاعات المدينة، غير الملائمة المضادة للفيضانات، بينما كان الناس يموتون لأن المتضررين كانوا من الناس الفقراء السود، وعندما تحركت الدولة بعد تسويف طويل كان شغلهم الشاغل هو قتل الناهبين والقتل بالرصاص (دون تمييز، سواء أكان السارقون يسرقون أجهزة إلكترونية أم يسرقون الطعام والشراب) وذالك قبل الذهاب إلى إطعام من يموتون جوعًا، وإيواء المشردين ودفن الموت، فكان يبدو أن الدافع وراء إرسال القوات هو أن النظام والقانون الذين وضعها الإنسان أضحيا مهددَّيْن، وليس الرغبة في إنقاذ ضحايا الكارثة البشرية[1]. باختصار إن هؤلاء الضحايا كانوا نفايات النظام وفضلات التحديث.

(1) زيجمونت باومان، الحياة السائلة، ت: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.